بشار ابن برد

شاعر الكبرياء

obeikandl.com

كان الأب يعمل طياناً.. يضرب الطوب اللبن.. وكان له ثلاثة أولاد: بشر وبشير يعملان بالجزارة.. وبشار.. وقد كُف بصره وهو في الرابعة من عمره.. فحال ذلك بينه وبين العمل مع أبيه أو مع أخويه.. وعاش يعطف عليه أبوه وأهله.. فقد كان قبيح الخلقة إلى جانب كف بصره وتركه أهله لشأنه.. لكنه حين أخذ يلعب مع أقرانه بدءوا يسخرون منه.. فهجر اللعب.. وبدأ يحضر مجالس العلم والشعر.. فقد كانت البصرة آنذاك تحفل بحركة علمية وأدبية كبيرة ومن ثم أحب اللغة والأدب وبدأ يقول الشعر في سن مبكرة.. وكان أبوه يحبه ويقول: ما رأيت مولوداً أعظم بركة من بشار.. ولد لي وما عندي درهم.. فلما حال الحول جمعت مائتي درهم!.

وبدأ بشار يتخذ من الشعر سلاحاً يدافع به عن نفسه ويهجو به كل من يسخر منه.

وكثيراً ما كان الناس يسرعون إلى أبيه ويشكون هجاءه.. فيضربه أبوه آمرا إياه أن يكف عن الهجاء، وتتدخل أمه وتستعطف أباه أن يكف عن ضربه.. وذات مرة قال بشار لأبيه: يا أبت.. إن هذا الذى يشكونه منى هو قول الشعر.. وإني إن داومت عليه أغنيتك وسائر أهلك.. فإن شكوني إليك ثانية فقل لهم: أليس الله يقول: "ليس على الأعمى حرج"؟ فلما عاودوا شكواهم.. قال لهم أبو (برد) ما قاله ولده بشار.. فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار.

اتخذ بشار إذن الهجاء سلاحاً يشهره فى وجه من ينتقص قدره أو يحجم عن مكافأته على شعره.. فلم يسلم الأمراء ولا البخلاء الأشحاء.. ولا فحول الشعراء الحاقدين عليه.. وهو وإن ظن أنه عدواني.. فقد اتخذ الهجاء سبيلاً للكرامة والكبرياء..

وحاول يوماً أن يهجو جريراً.. فلم يلق له بالاً، فقال بشار: هجوت جريراً فاستصغرني.. ولو هجاني لكنت أشعر أهل زماني.

كان بشار أحد الشعراء الكبار فى العصر العباسي.. وقد هجا عمرو بن العلاء الراوية الشهير بقوله:

أرفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عربى من قوارير

ما زال فى كير حداد يردده حتى بدا عربياً مظلم النور

إن جاز آباؤه فى مُضر جازت منه فلوس بخاري فى الدنانير

إنه هنا يقول: إذا بحثت نسب عمرو بن العلاء فابحثه برفق لأنه سريع الانكسار كالزجاج لضعفه.. لقد أخذ الحداد يردده فى كيره ليختبر حقيقته فظهر له زيف معدنه.. وإذا جاز التعامل بالدنانير فى بخاري – وهى لا تتعامل إلا بالدراهم – لجازت نسبة آباء عمرو السفلة إلى قبيلة مضر!.

واجتمع أدباء البصرة وعلماؤها ضده وانتهى به الأمر إلى نفيه من البصرة عام ٧٤٤م إلى أن ذهب إلى بغداد وعاش فى كنف العباسيين.. وبدأ ذلك بمدح الخليفة المنصور بقوله:

سراجٌ لعين المسْتضِئ وتارة يكون ظلاماً للعدو المزاحم

ونلاحظ هنا استخدام بشار – برغم عماه – للنور والظلام والعين.. بل نجده يتحدى عماه أكثر من مرة.. منها ما يقوله بعد ما هدده الخليفة:

يا منظراً حسناً رأيتُه فى وجه جاريةٍ فديتُه
بعثَت إلىّ تسومُنى برد الشباب وقد طويتُه
والله رب محمد ما إن غدرتُ ولا نويتُه
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيتُه
ويشوقنى بيت الحبيب إذا ادكرتُ وأين بيتُه

فأى وجه حسن هذا الذى رآه بشار وعبر عنه فى مطلع هذه القصيدة؟.. وأي وعد وعدته هذه الحسناء؟.

إنه – كما نرى – أسلوب يفوق أصحاب البصر..

وقد نال بشار حظوة كبيرة عند الخليفة المهدي جعلته يعجب بشعره وحسن بديهته.. ويتغاضى عن هجائه إلى أقرب الناس له.. ويحكى أن يزيد (خال المهدي) دخل على الخليفة وعنده بشار ينشده شعره.. فبعد أن انتهى بشار من قصيدته.. سأله يزيد: ما صناعتك؟ فأجابه بشار متهكماً: أثقب اللؤلؤ.

فضحك المهدي وقال لبشار: أتتهكم على خالي فى حضرتي؟

فقال بشار: ماذا أقول يا مولاى وهو يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعراً ويسأله عن صناعته.

فازداد الخليفة ضحكاً!.

وتختلف الآراء حول بشار وزندقته.. وهجائه المقذع.. وسخريته اللاذعة.. ويبدو أنه كان يلجأ إلى هذا كله رافضاً أن يشعره أحد بالنقص أو القبح.

ومع ذلك فقد دبر يعقوب بن داود وزير المهدي مؤامرة ضد بشار ليتخلص منه ومن لسانه.. وادعي أن بشاراً يرمى الخليفة المهدي وأم ولده بالفجور.. فما كان من المهدي إلا أن أمر بجلده حتى الموت..

وبعد أن مات بشار.. أرسل الخليفة إلى بيت بشار من يفتشه فإذا بكتاباته وأشعاره تثبت إيمانه بالله وولاءه للعباسيين، فلما قرأها الخليفة ندم على قتل بشار وقال: لا جزى الله يعقوب بن داود خيراً.

لكن صفحات التاريخ لا تخلو من سيرة هذا الشاعر الكبير الذى كان عبقري زمانه.. محبا للحياة.. شامخاً فى كبرياء بالرغم من محنته المظلمة.

وهى سيرة اختلف عليها الكثيرون.. لكنهم جميعاً يشهدون بشاعريته وعبقريته.